المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيمُ الله تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

نماذج تطبيقية من آيات التعظيم في القرآن الكريم
دراسة تحليلية

اسم الباحث

أ.د/ محمد حامد محمد سعيد

د. محمّد حامد محمّد سعيد

نماذج تطبيقية من آيات التعظيم في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الخلق وسيد المرسلين، سيدنا محمّد النَّبيِّ الهادي الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،

وبعد؛ فإنَّ القرآن الكريم الذي تعبَّدنا به ربُّنا تعالىٰ منذ نزوله علىٰ رسولنا الكريم ﷺ كتاب هداية وإعجاز، وتدبر وتفكّر؛ فالهداية والتدبر منشأهما قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، فالتدبر والتذكر الواردان في الآية المباركة نهايتهما الهداية والتصديق بكلّ حرف وكلمة جاءت فيه، ومن أسرار القرآن الكريم الكائنة فيه: تعظيم ما عظّمه الله -تعالىٰ-، وتحقير ما حقّره انطلاقًا من قضية الولاء والبراء المنوط بها العبد المسلم.

وقضيتي المحورية التي أعيش معها في هذا المؤتمر من خلال محوره الثاني هي بعنوان:

(نماذج تطبيقية من آيات التعظيم في القرآن الكريم دراسة تحليلية).

حيث يتألف البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة مطالب، وخاتمة.

أمّا **المقدمة** فتتضمن:

أولًا: أسباب اختيار الموضوع. ثانيًا: مشكلة البحث. ثالثًا: أسئلة البحث.

رابعًا: أهداف البحث. خامسًا: منهج البحث. سادسًا: خطة البحث.

أولًا: أسباب اختيار الموضوع: يعود سبب اختيار هذا الموضوع لعدة أسباب، منها:

- موضوع المؤتمر موضوع غير تقليدي حيث يطرق جانبًا هامًا من الجوانب القرآنية، ألا وهو تعظيم الله -تعالىٰ- في هدايات القرآن الكريم، فأحببت أن أدلو بدلوي في هذه الفعالية المباركة.
- إظهار روعة القرآن الكريم وبلاغته من خلال عرضه لآيات التعظيم الواردة فيه علىٰ اختلاف أشكالها وتعدد معانيها.
- قلة الأبحاث العلمية المتعلق بآيات تعظيم الله -تعالىٰ- في القرآن الكريم، حيث لم يُعرض هذا الموضوع عرضًا أكاديميًا كافيًا علىٰ الساحة العلمية الأكاديمية -حسبما وقفت عليه-.

- موضوع هدايات القرآن الكريم وإعجازه كان سببًا في دخول الكثير من المستشرقين في الإسلام، وذلك بسبب بحثهم في القرآن الكريم، الذي أدىٰ بهم في نهاية المطاف إلىٰ اعتناقهم للإسلام أمثال عبد الكريم جرمانوس وهو مجري الجنسية، وليوبولد فايس الذي أسمىٰ نفسه بعد إسلامه محمد أسد، ورجاء جارودي الفيلسوف الفرنسي الذي اعتنق الإسلام في عام ١٩٨٢م. وغير هؤلاء الكثير والكثير.

ثانيًا: مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في قلة الأبحاث العلمية المتعلقة بهذا الموضوع، ثم اعتقاد الكثير من غير المسلمين -وبعض المسلمين- بعدم صلاحية القرآن الكريم كمرجعية لواقعنا المعاصر حيث إنه جاء لزمن غير زمنا، ولأناس غيرنا، فبالتالي لا يصلح لنا أن نرجع إليه في واقعنا المعاصر، وهذه مشكلة كبيرة يمكن علاجها -بإذن الله تعالىٰ- من خلال بحثي هذا وسائر بحوث المؤتمر، فهي في مجملها تُثبت صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان من خلال هداياته وإعجازه، وأن كل طوائف المجتمع في أمس الحاجة إليه مسلمين وغير مسلمين.

ثالثًا: أسئلة البحث: هناك عدة أسئلة يطرحها بحثنا، فمن ذلك:

س١- هل في القرآن الكريم ما يدل علىٰ أنه كتاب هداية وإعجاز؟ أو أنه مجرد كلام بشري قاله محمد من تلقاء نفسه؟

س٢- هل آيات التعظيم الواردة في القرآن الكريم علىٰ اختلاف أشكالها وتعدد ألوانها كافية لهدايات البشر أو أن هناك قصورًا فيها؟

س٣- هل هناك جهود لعلماء المسلمين لإبراز هدايات القرآن الكريم مع أدلة وبراهين، أو أنه مجرد كلام عشوائي يملأ فراغات السطور فقط؟ إلىٰ غير ذلك من الأسئلة التي سوف تُطرح في ثنايا البحث ويمكن الرد عليها -أيضًا- أثناء عرضه.

رابعًا: أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلىٰ بيان عدة أمور، من أهمها:

- تأصيل مفهوم التعظيم الوارد في القرآن الكريم بكل محتوياته بين فئات المجتمع المسلم.
- إبراز الهدايات القرآنية الكائنة بين جنباته من خلال بعض من النماذج التطبيقية لها.
- شدة حاجة المجتمع المسلم لمثل هذه الدراسة، فهي من الدراسات الأكاديمية القليلة التي حظيت بها المكتبة الإسلامية، ولا شك أن هذا المؤتمر وأبحاثه سوف يُثري المكتبة الإسلامية ثراءً علميًا كبيرًا.

- إحياء ثقافة تعظيم الله -تعالىٰ- وذلك من خلال هدايات القرآن الكريم في نفوس الأمة الإسلامية، حيث إن هذا الإحياء سوف يؤدي إلىٰ تثبت العقيدة في قلوب المسلمين، وتشجيع غير المسلمين علىٰ الدخول في الإسلام.

خامسًا: منهج البحث:

سلكت في بحثي هذا المنهج التحليلي الوصفي حيث تتبعت بعضًا من النماذج القرآنية المتعلقة بآيات التعظيم وتحليلها تحليلًا عمليًا دقيقًا في ضوء ما كتبه العلماء الثقات، مع تحليل واستنباط واجتهاد، وإعمال للفكر والعقل، حسب القواعد العلمية الصحيحة المعتمدة لدىٰ علماء البحث العلمي، من أجل الوصول إلىٰ إثبات هدايات القرآن الكريم للبشرية عامة، وصلاحيته لتطبيق تعاليمه وآدابه وإرشاداته علىٰ أرض الواقع في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، حتىٰ يستفيد منه المسلم وغير المسلم، فصلاحيته ليست قاصرة علىٰ المسلم وحده.

وتمثلت معالم منهجي في البحث علىٰ النحو الآتي:

١- نسبة الآيات القرآنية إلىٰ سورها من مواضعها، وذلك في صُلب البحث.

٢- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها الأصيلة من كتب السنة، فإن كان الحديث في الصحيحين ذكرت تخريجه منهما أو أحدهما، وإن كان في غيرها ذكرت تخريجه مع الحكم عليه.

٣- نسبة كل قول إلىٰ قائله مع إثبات ذلك في هامش كل صفحة، تاركًا كتابة باقي بيانات المرجع إلىٰ صفحة المصادر والمراجع في آخر البحث.

٤- الاستفادة من الوسائل الالكترونية الحديثة، واستخدام الكتب الكائنة علىٰ المكتبة الشاملة الموثقة المعتمدة لدىٰ علماء البحث العلمي.

٥- إن كان في الأقوال المنقولة بعض الحذف أو الإثبات أو الإضافة قلت: (بتصرف).

٦- الاجتهاد وإعمال العقل في النصوص المنقولة، والعمل علىٰ ربط بعضها ببعض وفق القواعد العلمية المتفق عليها.

سادسًا: خطة البحث:

تتكون خطة البحث من: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مطالب، وخاتمة.

أما المقدمة: فهي التي نحن بصددها.

وأما التمهيد: ففيه التعريف بعنوان البحث -إجمالًا-

وأما المطلب الأول: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بالشعائر الدينية.

وأما المطلب الثاني: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بخلق الإنسان.

وأما المطلب الثالث: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بخلق السماوات والأرض.

وأما المطلب الرابع: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بهلاك المفسدين.

ثم **خاتمة البحث**، وأذكر فيها أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد

هذا البحث بعنوان (**نماذج تطبيقية من آيات التعظيم في القرآن الكريم دراسة تحليلية**).

ويُقصد به دراسة لبعض من النماذج التطبيقية المتعلقة بالشَّعائر الدِّينية تارة، وآيات التعظيم المتعلقة بخلق الإنسان تارة ثانية، وتارة ثالثة آيات التعظيم المتعلقة بخلق السَّماوات والأرض، ثم أختم حديثي بآيات التعظيم الإلهي في هلاك المفسدين في الأرض، وذلك في سياق الآيات القرآنية الدَّالّة علىٰ مفهوم التَّعظيم إما صراحة، وإما كناية، وإما اجتهادًا وإعمالًا للفكر والفهم، مع التأكيد علىٰ ربط ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال العلماء الثقات.

المطلب الأول: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بالشعائر الدينية

إن الناظر في القرآن الكريم يرىٰ أن لفظة الشعائر قد ذُكرت بين ثنايا الآيات القرآنية أربع مرات الأولىٰ في سورة البقرة وذلك من خلال الحديث عن الصفا والمروة، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾ [البقرة]، والثانية في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾ [المائدة: ٢]، والثالثة والرابعة في (سورة الحجّ)، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ ﴾، وقال -تعالىٰ- في (الآية: ٣٦): ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ ﴾.

فهذه الآيات الأربع هي الوارد فيها لفظة الشعائر، وقبل الحديث عن موطن التعظيم فيها أُعرِّف أوَّلًا المقصود بمصطلح الشَّعائر الدِّينية.

الشَّعائر: جمع شعيرة، الشَّين والعين والرَّاء أصلان معروفان، يدلّ أحدهما علىٰ ثبات، والآخر علىٰ علم. وكلّ ما جُعل علمًا لطاعة الله تعالىٰ كالوقوف والطواف والسَّعي والرَّمي والذَّبح وغير ذلك. والمشاعر: المعالم التي ندب الله إليها، وأمر بالقيام عليها، ومنه سُمِّي المشعر الحرام؛ لأنَّه معلم للعبادة، قال الزَّجَّاج: في شعائر الله: يعني بها جميع متعبدات الله التي أشعرها الله، أي: جعلها أعلامًا لنا، وهي كل ما كان من موقف أو مسعىٰ أو ذبح، وإنما

قيل شعائر لكل علم مما تعبد به؛ لأن قولهم شعرت به علمته، فلهذا سُمِّيت الأعلام التي هي متعبدات الله -تعالىٰ- شعائر(١).

فمفهوم الشَّعائر الدِّينية يُطلق علىٰ كلّ ما تعبدنا به ربنا تعالىٰ من أوامر ونواهي، والالتزام بها بفعل ما أمر، وترك ما نهىٰ عنه هو قمة التعظيم للآمر تعالىٰ، وبسكونها واستقرارها في أعماق القلوب تكمل العبودية لله -تعالىٰ-، وإن كان أغلبها يُطلق علىٰ شعائر الحج، حيث إن المواطن القرآنية الأربعة وردت في سياق عرض القرآن الكريم لفريضة الحج.

وبنظرة تأملية **للآية الأولىٰ** محل حديثنا نرىٰ أن الله -تعالىٰ- يقول فيها: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فالصفا والمروة من شعائر الله -تعالىٰ- بنص الآية القرآنية، ومشعر معظم عند الأمة الإسلامية بتعظيم الله -تعالىٰ- له، وسبب من أسباب تثبيت الإيمان في القلوب، حيث: تدل علىٰ الخضوع لله وعبادته إذعانًا وتسليمًا، وأمَّا التعبير بالشعائر -وهي ما تعبّدنا الله به كالصلاة ومناسك الحج-؛ فللدلالة علىٰ وجوب التنفيذ والطاعة، وممارسة العبادة، وإن لم نفهم معناها تمام الفهم، أو ندرك سرها، ولا يقاس عليها غيرها، أما غير الشعائر كالمعاملات من بيع وإجارة وشركة ورهن ونحوها، فهي مشروعة لمصالح البشر، ولها علل وأسباب يسهل فهمها وإدراك مقاصدها، فيجري فيها القياس بحسب المصلحة(٢).

فالمسلم الذي يُعظم شعيرة الصفا والمروة فهو معظِّم لله تعالىٰ، وسر تعظيم الله -تعالىٰ- لشعيرة الصفا والمروة يكمن في رد المسلمين إلىٰ توحيدهم الصحيح وعقيدتهم السليمة، ويؤكد هذا سبب النزول الذي ورد عن عَمْرُو بْنُ حُبْشِيٍّ قال: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: انْطَلِقْ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَلْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ محمد ﷺ أَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: كَانَ عَلَىٰ الصَّفَا صَنَمٌ عَلَىٰ صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ، وَعَلَىٰ الْمَرْوَةِ صَنَمٌ عَلَىٰ صُورَةِ امْرَأَةٍ تُدْعَىٰ نَائِلَةَ، زَعَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمَا زَنَيَا فِي الْكَعْبَةِ فَمَسَخَهُمَا اللهُ -تعالىٰ- حجرين، ووضعهما عَلَىٰ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيُعْتَبَرَ بِهِمَا، فَلَمَّا طَالَتِ الْمُدَّةُ عُبِدَا مِنْ دُونِ اللهِ -تعالىٰ-، فَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا طَافُوا بَيْنَهُمَا مَسَحُوا عَلَىٰ الْوَثَنَيْنِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَكُسِرَتِ الْأَصْنَامُ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوَافَ لِأَجْلِ الصَّنَمَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللهُ -تعالىٰ- هَذِهِ الْآيَةَ(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (مادة شعر ٣/ ١٩٣)، ولسان العرب (مادة شعر ٤/ ٤١٤)، ومعاني القرآن وإعرابه (٢/ ١٤٢).

(٢) التفسير المنير (٢/ ٤٩، ٥٠) بتصرف يسير.

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي (٤٦).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الطواف بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا»(١).

إن تعظيم الإسلام لشعيرة الصفا والمروة هدفه الأساسى تعظيم التوحيد في القلوب، ورد الناس إلىٰ العقيدة الصحيحة السليمة التى هى عقيدة التوحيد الخالص لله -تعالىٰ-، فالمسلم في تعظيمه لشعيرة الله دليل علىٰ وجود أثر للتقوىٰ في قلبه.

ولهذا وجب علىٰ المسلم الذي يُعظم شرع الله تعالىٰ ويُجّل رسوله الكريم إذا جاءه أمر من الله ورسوله أن: يأخذه علىٰ الرَّحْب والسِّعَة دون جدال ولا مناقشة، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه؟(٢).

أما **الآية الثانية**: فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢]، وهذه الآية الثانية من (سورة المائدة)، وهي تُلزم المؤمنين جميعًا باتِّباع شرع الله -تعالىٰ- وتعظيم أوامره ، واجتناب نواهيه ويؤكِّد هذا المعنىٰ ما ورد عن الحسن من قوله: إذا سمعت الله -تعالىٰ- يقول: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرع لها سمعك؛ فإنّها لأمر يُؤمر به أو لنهي تنهىٰ عنه»(٣)، وفي (الجامع لأحكام القرآن): أنَّ الآية: خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا، أَيْ: لَا تَتَعَدَّوْا حُدُودَ اللهِ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ(٤).

ويعلق الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الآية بقوله: «لا تحلوا حُرُمات الله، ولا تتعدَّوا حدوده كأنهم وجَّهوا (الشَّعائر) إلىٰ المعالم، وتأولوا: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معالم حدود الله، وأمرَه ونهيَه وفرائضَه»(٥).

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، قال: «كان المشركون يحجّون البيت الحرام، ويهدُون الهدايا، ويعظِّمون حرمة المشاعر، ويتَّجرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يُغَيِّروا عليهم، فقال الله تعالىٰ :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٤٣).
(٢) تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨١٠).
(٣) الكشف والبيان (٢/ ٦١)، وذكره ابن كثير في (تفسيره ٣/ ٤) عن عبد الله بن مسعود.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٧).
(٥) جامع البيان (٩/ ٤٦٢).
(٦) المرجع السابق نفسه.

ونرىٰ كذلك في الآية الكريمة نهيا عن: تعدي حرمات الله وحدوده، والقتال في الشهر الحرام -إلا حالة الاعتداء- ولا تتركوا الإهداء إلىٰ البيت، ففيه تعظيم لشعائر الله، وكذلك لا تتركوا تقليدها في أعناقها، لِيُعْلَمَ أنها هَدْيٌ إلىٰ الكعبة، ولا تستحلوا قتال القاصدين بيت الله الحرام فمن دخله كان آمنًا(١).

ويكمن موطن التعظيم هنا في الآية المباركة في عدم الاعتداء علىٰ حرمات الله -تعالىٰ- والالتزام بحدوده التي حدها، وعدم ترك الهدي إلىٰ البيت الحرام؛ لأن في الالتزام بأدائه تعظيما لله -تعالىٰ- حيث إنه -تعالىٰ- المشرِع وحده دون غيره، وفي تركه وعدم أدائه سوء أدب مع الله -تعالىٰ- وعدم تعظيم لما عظمه الله تعالىٰ، وعند ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شعائر الله محارمه، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها -تعالىٰ-، ولهذا قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يعني بذلك: تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهىٰ الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال، وتأكيد اجتناب المحارم»(٢).

و**شاهدنا الثالث** في مطلبنا هذا من النماذج الدَّالة علىٰ التعظيم في شأن الشعائر الدينية: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج]، ونلاحظ أن هذه الآية قد سبقها آية قبلها وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. ونلمح هنا سرًا بلاغيًا وضحه العلامة الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث ذكر أن: «مَضْمُون جُمْلَةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أَخَصُّ مِنْ مَضْمُونِ جُمْلَةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وَذِكْر الْأَخَصِّ بَعْدَ الْأَعَمِّ لِلِاهْتِمَامِ والعناية بالشعائر. وَضَمِيرُ ﴿فَإِنَّهَا﴾ عَائِدٌ إِلَىٰ ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الْمُعَظَّمَةِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ: فَإِنَّ تَعْظِيمَهَا ﴿مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾»(٣).

وبنظرة تأملية للآية المباركة نقرأ ما ذكره العلامة السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرماته وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومنها: الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنىٰ تعظيمها: إجلالها، والقيام بها، وتكميلها علىٰ أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها:

---

(١) التفسير المأمون (٢/ ٣٩١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٧).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور١٧/ ٢٥٦،٢٥٧ (بتصرف يسير).

الهدايا، فتعظيمها، باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوىٰ القلوب، فالمعظم لها يبرهن علىٰ تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»[(١)].

فذِكر الأخصّ بعد الأعمّ دليلُ عناية واهتمام، حيثُ إنَّ في العناية والاهتمام بالشَّعائر الإلهية دليل تعظيم وتوقير وتقدير لمن فرض تعظيمها، ثم تكون ثمرة هذا التعظيم التقوىٰ لله تعالىٰ، فالعبد إذا لم يكن علىٰ قدر من تقوىٰ الله -تعالىٰ- فلن يكون أبدًا معظِّمًا ومقدِّرًا لأي مشعر من شعائر الله -تعالىٰ-.

وعن لفظة الشعائر الواردة في الآية يذكر الإمام مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: «يَعْنِي: اسْتِعْظَامَ الْبُدْنِ وَاسْتِسْمَانَهَا وَاسْتِحْسَانَهَا»[(٢)]، إذًا فطيب النفس بما يُخرج في سبيل الله -تعالىٰ-، وعدم البُخل والشّح= دليلٌ علىٰ تعظيم المسلم لله -تعالىٰ-، والتزامه بأوامره ونواهيه، ولحظة التزام المسلم بالأوامر والنواهي هي لحظة تحقّق التقوىٰ في قلب العبد المسلم التي يرجوها الله تعالىٰ من عباده الموحدين.

ثمّ يأتي **الموطن الرابع** للفظ (الشعائر) والوارد في (سورة الحجّ) -أيضًا- وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وفي هذا الموطن يتحدث الله -تعالىٰ- عن مشعر آخر من مشاعر التعظيم والتوقير لله -تعالىٰ- حيثُ يكمن في شعيرة الأضحية التي سنَّها لنا رسولنا الكريم ﷺ، ورغَّب فيها، وحثَّ علىٰ فعلها في أكثر من حديث، حيث ثبت عنه ﷺ أنَّ ذبح الأضحية هي أحبُّ الأعمال إلىٰ الله -تعالىٰ- يوم النَّحر، ففي (سنن ابن ماجه): عن: عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ، مِنْ هِرَاقَةِ دَم، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِقُرُونِهَا، وَأَظْلَافِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا**»[(٣)].

ونلاحظ في الآية المباركة: أنَّ الله -تعالىٰ- أضاف هذه الشَّعيرة إلىٰ نفسه، فقال: ﴿مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، وإضافتها إلىٰ الله -تعالىٰ- دليلُ اهتمام وعناية بها، ثم يُبيِّن الله -تعالىٰ-

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٣٨).

(٢) تفسير مجاهد (٤٨١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣١٢٦)، والترمذيُّ (١٤٩٣)، وقال: «حسن غريبٌ»، وضعّفه الألباني في (ضعيف سنن ابن ماجه).

مكمن العناية والاهتمام من خلال قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فالخيرية المذكورة في الآية خيرية وردت في سياق النكرة، والنكرة تدلّ علىٰ العموم والشُّمول، فالعبد المؤمن لا يدرىٰ من أين يأتيه الخير، قال مجاهد: «﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أجرٌ ومنافعُ»، وقال إبراهيم النَّخعيُّ: «يركبها، ويحلبها إذا احتاج إليها»[١]، فالمنافع دنيوية من حيث الركوب والصوف والنسل والألبان، وخلافه، والمنافع الأخروية تكون برضا الله -تعالىٰ- عن عبده المسلم المعظِّم لشعيرة الأضحية.

ويجلي الطَّاهر رَحِمَهُ اللَّهُ سرَّ خيريتها، فيقول: «إِنَّمَا كَانَ مَا ذُكِرَ خَيْرًا؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ هَنَاءَ الْعَيْشِ وَاسْتِقْرَارَ الْأَمْنِ وَصَفَاءَ الْوُدِّ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَزَوَالَ الْإِحَنِ الْمُفْضِيَةِ إِلَىٰ الْخُصُومَاتِ وَالْمُقَاتَلَاتِ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ كَثُرَتِ الْأُمَّةُ وَعَزَّتْ وَهَابَهَا أَعْدَاؤُهَا وَحَسُنَتْ أُحْدُوثَتُهَا وَكَثُرَ مَالُهَا بِسَبَبِ رَغْبَةِ النَّاسِ فِي التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ لِأَمْنِ صَاحِبِ الْمَالِ مِنِ ابْتِزَازِ مَالِهِ، وَفِيهِ خَيْرُ الْآخِرَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنْ فَعَلُوهُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ -تعالىٰ- بِوَاسِطَةِ رَسُولِه أكسبهم رضىٰ اللهِ، فَنَجَوْا مِنَ الْعَذَابِ، وَسَكَنُوا دَارَ الثَّوَابِ، فَالتَّنْكِيرُ فِي قَوْلِهِ: خَيْرٌ لِلتَّعْظِيمِ وَالْكَمَالِ؛ لِأَنَّهُ جَامِعُ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[٢]، وقريبٌ من هذا المعنىٰ أيضًا: أنَّ تعظيمَها اعتقادُ أنَّ التَّقربَ بها من أجلِّ القُرباتِ، وأنْ يختارَها حِسانًا سِمانًا غاليةَ الأثمان، ويراعىٰ في اختيارها أَن تجمع بين السَّلامة من العيوب والسِّمن[٣].

هذا فيما يتعلق ببعض من الآيات الدالة علىٰ تعظيم الله -تعالىٰ- فيما يخص الشعائر الدينية والتي مثلتها أربع آيات قرآنية فيها الدلالة الواضحة علىٰ تعظيم الله -تعالىٰ- في قرآنه.

المطلب الثاني: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بخلق الإنسان

أول ما يطالعنا في مطلبنا هذا روعة القرآن الكريم وبلاغته في عرضه للآيات المتعلقة بخلق الإنسان والعظمة الإلهية في سردها من أولها لآخرها، ويكمن سر العظمة والبلاغة في وصفه للإنسان أثناء العرض القرآني في جانبين: الجانب الأول: الوصف الإيجابي للإنسان؛ حيث يكمن في وصفه بأن: الله -تعالىٰ- جعله خليفة، وأنه حامل للأمانة، وأنه مُكرم من عند الله -تعالىٰ-، وأن الله خلقه في أحسن تقويم، وأن الله -تعالىٰ- أسبغ عليه النعِم الظاهرة

(١) انظر: قول مجاهد والنّخعيّ في (تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٤).
(٢) التحرير والتنوير (٨/ ٢٤٥).
(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٢١٥).

والباطنة، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف الإيجابية للإنسان، وأما الجانب الثاني: فهو الوصف السلبي للإنسان؛ حيث ورد وصفه بأنه: الضعيف، الجاهل، الظالم، الكفور، العجول، الهلوع، القنوط، المجادل، البخيل، المغرور، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف السلبية، وقبل هذا وذاك التجلي الإلهي في بيان أطوار خلق الإنسان، والآيات المتعلقة بجانب التعظيم فيها، وهذا هو حديثنا الأول من خلال آيات خلق الإنسان. وإجمالي ذِكر لفظ الإنسان في القرآن الكريم بأوصافه الإيجابية والسلبية ما يقرب من خمسة وستين موضعًا علىٰ اختلاف أشكالها وتعدد ألوانها(١).

ويمكن لنا أن نقسم الحديث في مطلبنا هذا إلىٰ ثلاثة نقاط أساسية، مع معايشة لبعض من النماذج القرآنية المرتبطة بآيات التعظيم فيها:

النقطة الأولىٰ: الأوصاف المتعلقة بأصل الخلقة.

النقطة الثانية: الأوصاف الإيجابية للإنسان.

النقطة الثالثة: الأوصاف السلبية للإنسان.

هذا الإجمال يليه التفصيل -إن شاء الله -تعالىٰ-:

النقطة الأولىٰ: الأوصاف المتعلقة بأصل الخلقة.

نعيش مع بعض من آيات التعظيم المتعلقة بأصل خلق الإنسان والتي توضح مدىٰ التجلي الإلهي في خلقه؛ حيث يُبين الله -تعالىٰ- أن الإنسان منذ بدايته لم يكن شيئًا أصلًا، ولا معرفة لأحد به علىٰ الإطلاق، فمن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان].

وبنظرة تأملية تحليلية في هاتين الآيتين نرىٰ أن الله -تعالىٰ- يُذّكر الإنسان بأصل خلقه، وأنه قبل ذلك لم يكون مذكورًا في الوجود، والتذكير من الله -تعالىٰ- لبني الإنسان إنما هو تشريف وتعظيم له، -فكما يُذكر الشخص العادي من الملك أو السلطان فهذا يُعد رفعة

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (٩٣)، وقد اقتصرت هنا علىٰ لفظ (الإنسان) فقط مع أن الجذر اللغوي للمصطلح يسع أكثر من هذا، ولم أتعرّض له في سياق بحثي خوفًا من إطالة البحث عن الصفحات المطلوبة.

وعلوًا لشأن الشخص المذكور-، فكأن الله -تعالىٰ- يُعظِّم الإنسان ويكرمه حين يُذكره بأصله الذي كان عليه قبل خلقه، حيث كان مغمورًا منسيًا، فمجرد الحديث من الله تعالىٰ عن بني الإنسان يُعد تعظيمًا وتشريفًا له.

يؤكد هذا المعنىٰ ما جاء عن يحيىٰ بن سلام، قال: «﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فِي الْخَلْقِ وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللهِ شَيْئًا مَذْكُورًا، وَقِيلَ: لَيْسَ هَذَا الذِّكْرُ بِمَعْنَىٰ الْإِخْبَارِ، فَإِنَّ إِخْبَارَ الرَّبِّ عَنِ الْكَائِنَاتِ قَدِيمٌ، بَلْ هَذَا الذِّكْرُ بِمَعْنَىٰ الْخَطَرِ وَالشَّرَفِ وَالْقَدْرِ، تَقُولُ: فُلَانٌ مَذْكُورٌ أَيْ لَهُ شَرَفٌ وَقَدْرٌ»[(١)].

ثم تنتقل الآيات المباركات إلىٰ مظهر آخر من مظاهر العظمة المستقرة في خلق الإنسان، ألا وهو مرحلة الخلق والإنشاء من العدم، ونلاحظ في هذه المرحلة أن الله -تعالىٰ- نسب الخلق إلىٰ نفسه، فلا يقدر علىٰ هذه المرحلة إلا الله تعالىٰ، فدائمًا ما يرد الكلام بلفظ (خَلَقْنَا)، فهذه نون العظمة كما يقول أهل اللغة، ويمثل هذه المرحلة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[الحِجر]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[المؤمنون]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس]، وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[الإنسان].

فهذا قدر من الآيات المباركات الدالة علىٰ عظمة الخالق تعالىٰ في خلقه للإنسان، والمراحل التي يمر بها أثناء خلقه؛ حيث تجلت العظمة الإلهية في تكوين الإنسان من خلال عدة مراحل في خلقه، وهي:

المرحلة الأولىٰ: أن الإنسان مخلوق من عنصرين أساسيين، هما: الماء والتراب، وعندما اختلط الماء بالتراب صار طينًا، والتراب الذي خُلق منه الإنسان جُمع من كل تراب الأرض؛ ولذا جاءت الناس مختلفين في الأشكال والألوان والطبائع.

قال الحكماء: إنما خُلِق آدمُ من التراب؛ لوجوهٍ: الأول: ليكون متواضعًا، الثاني: ليكون سَتَّارًا، الثالث: إذا كان من الأرض ليكون أشدَّ التصاقًا بالأرض؛ لأنه إنما خُلق لخلافة الأرض، الرابع: أراد الحق إظهار القدرة، فخلق الشياطين من النار التي هي أضوَأ الأجرامِ، وابتلاهم

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١١٩).

بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجرام، وأعطاهم كمال الشدة والقوة، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام، ثم أعطاهم المعرفة والنور والهداية، وخلق السماوات من أمواج مياه البحر، وأبقاها مُعَلَّقة في الهواء، حتىٰ يكون خلقه هذه الأجرام بُرْهانًا باهِرًا، ودليلًا ظاهرًا علىٰ أنه -تعالىٰ- هو المدبر بغير احتياج، الخامس: خلق الإنسان من تراب فيكون مُطْفِئًا لنار الشهوة، والغضب، والحِرْص؛ فإن هذه النيران لا تنطفئ إلا بالتراب، وإنما خلقه من الماء ليكون صافيًا، تتجلَّىٰ فيه صُوَرُ الأشياء[١].

ثم تأتي **المرحلة الثانية**: مرحلة **(النُّطْفة)** وهي تعني: «الماء الأبيض الغليظ الدَّافق الذي يتكوَّن منه الولدُ، ويذهب منه الشَّهوة، وينكسر بخروجه الذَكَر، ومنشؤه إفرازات الخصيتين، ويختلط بِهِ إِفْرَاز الحوصلتين المنويتين والبروستاتا»[٢].

وهذه المرحلة تحدَّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان]، ويلاحظ أسلوب التعظيم الوارد فيها حيث عبر الله -تعالىٰ- بقوله: ﴿خَلَقْنَا﴾ ونون العظمة منسوبة لله -عزَّ وجلَّ- فهو وحده القادر علىٰ هذا الخلق، قال ابن عبَّاس في قوله -تعالىٰ-: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، يعني: ماء الرَّجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثمّ ينتقل بعدُ من طور إلىٰ طور، ومن حال إلىٰ حال، ومن لون إلىٰ لون، وهكذا. قال عكرمة ومجاهد والحسن البصري والرَّبيع بن أنس: الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة[٣].

وقد تضمّنت هذه الآية صورًا بلاغية تدلّ علىٰ مدىٰ العظمة الإلهية الكائنة فيها، منها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لزيادة التقرير، ومنها: وصف المفرد بالجمع في قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فإنَّه وصف النُّطفة مع كونها مفردًا بالجمع، وهو أمشاج؛ لأنَّ المراد بها مجموع الماءين: ماء الرَّجل وماء المرأة، ولكلّ منهما أوصاف مختلفة من اللَّون والرِّقَّة والغِلَظ، وخواصّ متباينة[٤].

ثم تأتي **المرحلة الثالثة** من مراحل خلق الإنسان، والتي تمثلها **(العلقة)**، وأصل مادتها اللغوية: (علق). والعين واللَّام والقاف أصلٌ كبيرٌ صحيحٌ يرجع إلىٰ معنًىٰ واحد، هو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٢٨٠، ٢٨١)، وغرائب القرآن (٢/ ١٧٤).

(٢) المعجم الوسيط (مادة: منن ٢/ ٨٨٩)، والتعريفات الفقهية (٢٢٠).

(٣) الأساس في التفسير (١١/ ٦٣٠٢).

(٤) حدائق الروح والريحان (٣٠/ ٥٢٣) بتصرف.

الدَّم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أن ييبس، وقيل: هو ما اشتدت حُمرته، والقطعة منه: عَلَقة[١].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المرحلة من خلال قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، والمعنىٰ: أي حولنا النُّطفة عن صفاتها إلىٰ صفات العلقة، وهي الدم الجامد[٢].

ونلاحظ هنا: أنَّ هذه مرحلة أخرىٰ تدلّ علىٰ عظمة الخالق فيما أبدع وأوجد، حيث نسب الله -تعالىٰ- الخلق إلىٰ ذاته العلية، فقال: ﴿خَلَقْنَا﴾ ممّا يُعطي هذا المخلوق (العلقة) التشريف والتعظيم ممن خلقه وهو الله -عزَّ وجلَّ-، وكذا نرىٰ في الآية أنَّ النُّطفة بدأت تتحول إلىٰ كُنية أخرىٰ مع مسمّىٰ آخر، فتتحرك باتِّجاه الرحم لتتعلَّق به؛ ولهذا يُطلق الله -تعالىٰ- عليها اسم العَلَقة، ثمّ يخرج من العلقة بعض الزَّوائد التي تمتد في بطانة الرّحم، حيث تقوم بامتصاص الغذاء من دم الأم، وهكذا.

ثمَّ **المرحلة الرَّابعة** ألا وهي (المُضْغَة)، وهي: قطعة من اللّحم صغيرة قدر ما يمضغه الإنسان، عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، يقول الإمام الرَّازيُّ: «المرتبة الرابعة: قوله -تعالىٰ-: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، أي: جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم، كأنها مقدار ما يُمضغ كالغَرْفَة، وهي: مقدار ما يُغترف، وسُمِّي التَّحويل خلقًا؛ لأنَّه -سبحانه- يُفني بعض أعراضها ويخلق أعراضًا غيرها، فسمَّىٰ خلق الأعراض خلقًا لها، وكأنَّه ﷻ يخلق فيها أجزاء زائدة»[٣].

والمرحلة الخامسة من خلال قوله -تعالىٰ-: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾، أي: صيرناها عظامًا، يعني: شكَّلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها[٤]، وهذه المضغة قد تكون ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[الحج: ٥] فالمخلقة المصورة خلقًا تامًّا، وغير مخلقة: السِّقط قبل تمام خلقه[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (علق ٤/ ١٢٥)، ولسان العرب (علق ١٠/ ٢٦٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٦٥).
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) التفسير المنير (١٨/ ١٩).
(٥) جامع البيان (١٨/ ٥٦٨).

وهنا سؤال يطرح نفسه، مضمونه: مَن الذي كوَّن العظام من اللَّحم، والعظام لها طابع خاصّ، ومكوِّن من مواد تختلف عن مواد اللّحم؟ إنَّه الخالق ﷻ، فكسونا العِظام لحمًا، نعم، قد كسىٰ العظام باللَّحم والعصب، إنَّه نظامٌ دقيقٌ جدًّا، يعرفه مَن مارس صنع الآلات، وحاجتها الشَّديدة إلىٰ ما يشبه المفاصل في الإنسان، إنَّه تركيبٌ دقيقٌ، وصنعة محكمة! والطبّ الحديث أثبت أنَّ العظم يتكوَّن -أولًا-، ثمّ يُكسىٰ باللَّحم، فمن علَّم ذلك النَّبيَّ الأميَّ؟! إنَّه الله -تعالىٰ-![1].

أليس في هذا كلّه دليلٌ علىٰ تعظيم الله -تعالىٰ- للإنسان منذ لحظات نشأته الأولىٰ، فأيّ إله يهتم بمخلوقاته، كما يهتم ربُّنا -عزَّ وجلَّ- ببنىٰ الإنسان، وصدق الله حيث قال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[الإسراء: ٧٠]. إنَّه الإله الذي يستحق العبادة بحقٍّ دون سواه، ويكتمل طريق التعظيم في تلك المرحلة بأن عبّر عن العِظام بالجمع، وسائر المراحل بالإفراد، حيثُ: «جُمعت العظام مع إفراد أخواتها؛ لاختلافها بين صغير وكبير، ومدوَّر وطويل، وصلب وغضروف»[2].

ثم تأتي **المرحلة السادسة** قبل الأخيرة في قوله -تعالىٰ-: : ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، وأول ما يلفت الأنظار هنا: هو نسبة الكسوة إلىٰ الله -تعالىٰ-، حيثُ جاء التعبير بضمير (نا) الدَّالّ علىٰ التعظيم في قوله: (كَسَوْنَا) فهذه الكسوة لا يقدر غير الله -تعالىٰ- علىٰ فعلها، لا إنس ولا جنّ فهو وحده القادر عليها وعلىٰ غيرها من المراحل السَّابقة واللَّاحقة، ومعنىٰ الآية: سترناها به، وقال: كسونا؛ لأنَّ اللحم كالكسوة للعظم والعِرق، إذ تتداخل به وتمتد لربط المفاصل بصورة محكمة من فعل الحكيم القدير[3]، وهذه المرحلة: تستغرق الأسبوع الخامس والسَّادس والسَّابع، وفي الأسبوع السَّادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح، وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السُّفلي ببضعة أيام، وأوّل علامة علىٰ وجود عضلات الأطراف تظهر في الأسبوع السَّابع، ومعنىٰ هذا أنَّ العظام تسبق العضلات، ثم تكسو العضلات العظام، وصدق الله العظيم

(١) التفسير الواضح (٢/ ٦١٧).
(٢) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥٨٥).
(٣) بيان المعاني (٤/ ٣٤٥).

حيث يقول: : ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾[١]، إن التعبير بلفظ الكسوة تعبير في غاية الروعة البلاغية الدال علىٰ عظمة الله -تعالىٰ- في خلقه من جعل كساء العظم باللحم.

وبعد هذه المرحلة تأتي **مرحلة الخلق الآخر** التي عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، حيثُ ذكر الإمام الطبريُّ ما نصه: «اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْشَاؤُهُ إِيَّاهُ خَلْقًا آخَرَ: نَفْخُهُ الرُّوحَ فِيهِ، فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ إِنْسَانًا، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صُورَةً، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنْشَاؤُهُ خَلْقًا آخَرَ: تَصْرِيفُهُ إِيَّاهُ فِي الْأَحْوَالِ بَعْدَ الْوِلَادَةِ: فِي الطُّفُولَةِ، وَالْكُهُولَةِ، وَالِاغْتِذَاءُ، وَنَبَاتُ الشَّعْرِ، وَالسِّنِّ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأَحْيَاءِ فِي الدُّنْيَا، وقِيل جُعِلَ ذكرًا أَوْ أنثىٰ»[٢].

ثم تختتم الآية بقوله -تعالىٰ-: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، حيث: «إِنَّ الْعِبَادَ قَدْ يَخْلِقُونَ، وَيُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْفُخُوا فِيهِ الرُّوحَ»[٣].

وبنظرة تحليلية عامَّة علىٰ تلك المراحل وبعض أسرارها ودقائقها نلفي صاحب (التفسير القرآني للقرآن) يقول: تقصّ هذه الآية قصة (خلق) الإنسان، ابتداءً من النطفة، التي جعلها الله ﷻ في قرار مكين هو الرّحم، وهنا يتجلىٰ الإعجاز القرآني، حتىٰ ليكاد يلمس باليد، إن عميت عنه العيون، وزاغت عنه الأبصار! فقد رأينا كيف فرق النظم القرآني بين أمرين: فأولًا: جعل إيجاد الإنسان من الطين، عملية خلق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون]، وثانيًا: جعل توالد الإنسان من النطفة عملية وظيفية، تخضع لسنن ظاهرة يدركها الإنسان، ويعمل علىٰ تحقيقها، وقد عبر عنها القرآن بلفظ: (جعل)، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون]، وهنا في هذه الآية -وهو موضع العجب والدّهش والانبهار لهذا الإعجاز- هنا تتحرك النُّطفة نحو غايتها إلىٰ أن تكون مولودًا بشرًا؛ يتنقّل من نطفة، إلىٰ علقة، إلىٰ مُضغة، إلىٰ هيكل عظمي مُعَرًّىٰ من اللَّحم، إلىٰ هيكل بشرىٰ يكسوه اللّحم، إلىٰ جنين، ثم طفل. وهذه الأطوار هي في الواقع انطلاقة لهذه النطفة، وإظهار لما في كيانها! وعلىٰ هذا، فقد كان من المتوقع أن تكون هذه التحركات للنُّطفة من باب

(١) مباحث في إعجاز القرآن (٢١٩).
(٢) جامع البيان (١٩/ ١٧، ١٨)، ومعاني القرآن وإعرابه (٤/ ٩) بتصرف.
(٣) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين المالكي (٣/ ١٩٦).

(الجعل)، لا (الخلق)؛ لأنَّ النُّطفة ذاتها (مجعولة)، وكلّ ما تعطيه هو من (المجعول) أيضًا. ولكنَّ النَّظم القرآني، خالف هذا، وجاء بالتَّعبير عن (الجعل) بلفظ (الخلق)، فالنُّطفة لم تُجعل علقةً، وإنّما خُلقت علقةً ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، والعَلَقة لم تُجعل مُضغةً، وإنّما خُلِقت مُضغةً ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، وهكذا المضغة لم تُجعل عظامًا، وإنّما خُلِقت عظامًا ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾. فما سرُّ هذا؟ بل ما أسرار هذا؟ وماذا وراءه؟ السِّرُّ في هذا -والله أعلم- أنَّ كلَّ عملية من هذه العمليات، هي خلقٌ جديدٌ، لا يملكه إلَّا الخالق جلَّ وعلا، وهو ممّا استأثر به -سبحانه وتعالىٰ- وحده، فسمَّىٰ ذاته (الخالق)، وأبىٰ علىٰ خلقه أن يشاركوه في هذه الصِّفة. ومعنىٰ هذا: أنَّه لا يمكن للإنسانية كلّها -وإن اجتمعت- أن تنتقل بالإنسان في هذه الأطوار من طور إلىٰ طور، وأنَّ قدرة النَّاس-ولو اجتمعت- لا تستطيع أن تنتقل بالنُّطفة إلىٰ العَلَقة، ولا بالعَلَقة إلىٰ المُضغة، وهكذا. إنّها جميعها -كما قرر القرآن- عمليات (خلق)، استأثر بها الخالق. وإنّها لمعجزة قرآنية متحدية، قائمة علىٰ التَّحدي في كلِّ زمان ومكان. وإنَّه لن يأتي العلم أو العلماء -مهما بلغ العلم، واجتهد العلماء- بما يقف لهذه المعجزة المتحدية، علىٰ مدىٰ الأزمان[١].

هذه التفاصيل العجيبة الغريبة في تكوين خلق الإنسان كانت سببًا في هدايات الكثير والكثير من غير المسلمين ودخولهم الإسلام[٢]، أي عظمة هذه؟ وأي إبداع هذا؟ إنها عظمة وإبداع الواحد الديان الذي عظّمه وقدره كل شيء من مخلوقاته.

النقطة الثانية: الأوصاف الإيجابية للإنسان

ذكرنا في بداية مطلبنا هذا: أنَّ القرآن الكريم ذكر الأوصاف الإيجابية التي وصف بها الإنسان، فمن ذلك: أنَّ الله -تعالىٰ- جعله خليفة، وأنَّه حامل للأمانة، وأنَّه مُكَرَّم من عند الله تعالىٰ، وأنَّ الله خلقه في أحسن تقويم، وأنَّ الله -تعالىٰ- أسبغ عليه النِّعَم الظَّاهرة والباطنة، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف الإيجابية للإنسان[٣].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٩/ ١١٢٠، ١١٢١).

(٢) انظر: حلقات برنامج (بالقرآن اهتديت) علىٰ اليوتيوب، ومناظرات الشيخ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ديدات، وتلميذه ذاكر نايك، حيث دارت موضوعات بعض تلك المناظرات في خلق الإنسان وتطور مراحله.

(٣) أعيش مع نموذج واحد فقط، وذلك خوفًا من إطالة صفحات البحث، وبيان مكمن التعظيم الكائن في الآية المباركة.

وأول ما يُطالعنا -هنا- قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فالإنسان يخلف بعضه بعضًا في أرض الله -تعالىٰ- جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن بالعمارة والسكنىٰ وأمور المعيشة، ومنه قِيل للسلطان: خليفة؛ لأنه يخلف الذي قبله، وآدم خليفة الله -تعالىٰ- في أرضه؛ لأنه القائم بتنفيذ الأحكام وبسط السلطان، ونلاحظ أسلوب التعظيم الوارد في الآية من خلال حرف (إنّ) الذي يفيد التوكيد و(الياء) الضمير المتّصل الذي هو في محلّ نصب اسم، فالله عز وجل وحده الذي جعل له خليفة في أرضه وليس واحدًا من مخلوقاته -تعالىٰ-، وفي هذا التوكيد والجعل تشريف وتعظيم لبنىٰ آدم حيث لم يذكر الله هذه العبارة -﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾- في أيٍّ من مخلوقاته قبل ذلك، يُؤكِّد هذا المعنىٰ ما ورد عن ابن الجوزيِّ من قوله: «أنَّه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده، ليكونوا معظّمين له إذ أوجده»[(١)].

وأيضًا ما ذكره صاحب كتاب (لطائف الإشارات): «أنَّ الله -سبحانه وتعالىٰ- خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيء منه ما قال في حديث آدم؛ حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة[(٢)] لو كان من المخلوقين، والحقُّ -سبحانه وتعالىٰ- خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل: إنِّي خالقٌ عرشًا أو جنةً أو ملكًا، وإنَّما قال تشريفًا وتخصيصًا لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾»[(٣)].

فهذه الآية فيها الدَّلالة الواضحة علىٰ التَّشريف والتَّعظيم الإلهي لبنىٰ الإنسان، وأنَّه أهلٌ لهذا التَّعظيم؛ وإلَّا لما عظَّمه الله -تعالىٰ- دون سائر خلقه.

النقطة الثالثة: الأوصاف السلبية للإنسان

ذكرنا سالفًا: أنَّ للإنسان صفات سلبيةً، منها: الضَّعف واليأس والقنوط والجهل ... الخ، وهنا: ندلّل علىٰ ذلك ببعض آي القرآن الكريم، فمن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ

(١) زاد المسير (١/ ٥٠).

(٢) تعالىٰ الله تعالىٰ عن استشارة خلقه، فالاستشارة استمداد علم من المستشار، والله -تعالىٰ- منزَّه عن ذلك، وإنَّما ذلك إعلام، كإعلامه إيَّانا كثيرًا من الكائنات لمصلحة ما، ولمزيد من البحث في هذه القضية يراجع: تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٤٠)، وما بعدها.

(٣) لطائف الإشارات (١/ ٧٤، ٧٥).

﴿ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الواضحة الدالة علىٰ الصفات السلبية التي يتضمنها بنىٰ الإنسان.

ونعيش مع صفة من الصِّفات السَّلبية للإنسان ألا وهي (الضعف)[(١)]، فالضَّعف صفة من الصَّفات التي هي كائنة في الإنسان، بل قد ينساها في الكثير من الأحيان بدليل تكبره وغروره، فالإنسان إذا لم ينس صفة الضَّعف الكائنة فيه ما تكبّر ولا تجبَّر ولا مَلكه الغرور، يقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، قال ابن كيسان: «يستميله هواه وشهوته ويستطيشه خوفه وحزنه»[(٢)]، فالله -عزَّ وجلَّ-: «وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف، وهو العليم بتدبيره، القدير علىٰ إرادته، وهو الفعال لما يريد، المتصرف في مخلوقاته كيف يشاء»[(٣)]، وتتجلىٰ مظاهر العظمة الإلهية هنا في قدرة الله -تعالىٰ- علىٰ وصف الإنسان بصفة هي ملازمة له من لحظة ميلاده حتىٰ لحظة وفاته، حيث قال تعالىٰ:

---

(١) المراد بالضعف: الضعيف، حيث إنَّ صفة الضعف يُقصد بها الضعيف، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، من إطلاق المصدر علىٰ اسم الفاعل، فالضعف صفة ملازمة للإنسان منذ صغره، وهذا ما أقصده في بحثي، وقد تكون أيضًا صفة مكتسبة، وذلك حينما يكون الإنسان ضعيف الرَّأي، ضعيف الشَّخصية، ضعيف الإرادة .. الخ، فنحن ضعفاء بالنِّسبة لله -عزَّ وجلَّ-، أقوياء بالنسبة لبعضنا البعض، ثمَّ إنَّ: «تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالًا بعد حال من ضعف إلىٰ قوة، ثّم من قوة إلىٰ ضعف= دليلٌ علىٰ قدرة الخالق الفعَّال لما يشاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ولا يعجزه أن يعيدكم كَرَّة أخرىٰ». انظر: تفسير المراغي (٢١/ ٦٥).

(٢) الكشف والبيان (٣/ ٢٩١).

(٣) التفسير المنير (٢١/ ١١٥).

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤]، حتىٰ في لحظات القوة فهو ضعيف أيضًا، فهذا الوصف لا يقدر علىٰ تحقيقه إلا الله -تعالىٰ- وهنا مكمن العظمة الخاصة بالله -عزَّ وجلَّ-، قال المفسرون: المعنىٰ: **خلقكم من** ماءٍ ذي **ضَعف**، وهو المنيّ، **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ**، يعني: ضعف الطفولة **قوَّةَ** الشباب، **ثُمَّ جَعل مِن بَعْد قوَّةِ** الشَّباب **ضعفَ** الكِبَر، وشيبةً، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من ضعف وقوَّة وشباب وشَيبة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ علىٰ ما يشاء[1].

فمكمن العظمة في الضَّعف هذا الملازم للإنسان: أنَّ هذا الفعل لا يقدر علىٰ تحقيقه في بنىٰ الإنسان إلَّا الله -تعالىٰ-، ثمّ التَّعبير بصيغة الجمع، وهذا من باب الإخبار من الله -جلّ ذِكره- عن نفسه بلفظ الجمع تعظيمًا وتبجيلًا[2].

ومن خلال ما سبق يمكن لنا إجمال مطلبنا هذا في ثلاث نقاط أساسية: ألا وهي: **الأوصاف المتعلقة بأصل الخلقة**، ثمّ يليه: **الأوصاف الإيجابية للإنسان**، ثم يليه: **الأوصاف السلبية للإنسان**، ومن هذه النقاط الثلاث تكوَّن مطلبنا الثاني، وبعده مباشرة أنتقل إلىٰ مطلبنا الثَّالث بعنوان:

المطلب الثالث: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بخلق السماوات والأرض

إن من الأمور المثيرة للتأمل والتعجب تلكم الآيات القرآنية المتعلقة بخلق السماوات والأرض وما يرتبط بهما من أجرام سماوية لا يقدر علىٰ خلقها وتيسيرها إلا إله خالق عليم قادر علىٰ تيسير كونه وفق علمه وإرادته، فأول ما يطالعنا من تأملنا وتعجبنا البشري في خلق السماوات والأرض التعبيرات القرآنية التي فاقت العقول البشرية في التعبير عنهما، فمثلًا نرىٰ القرآن يُعبر تارة بصيغة الإفراد -السماء- في مائة وعشرين موضعًا، وتارة ثانية بصيغة الجمع -السماوات- في مائة وتسعين موضعًا[3]، وعلىٰ هذا يكون ذِكر لفظ السماء بالإفراد والجمع المذكور في القرآن الكريم ثلاثمائة وعشرة مرات، أما لفظ الأرض

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٢٧).

(٢) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد (٥/ ١٩٩).

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (٣٦٢)، وما بعدها.

فقد وردت كذلك فيما يقرب من أربعمائة وواحد وخمسين مرّة، بكلّ حركاتها الثلاث الضم والفتح والكسر، ثم وردت بصيغة الإفراد (أرضًا-أرضي) ثلاث مرات، بالتنوين وياء الإضافة، ثم بصيغة الخطاب (أرضكم) ثلاث مرات، وبصيغة المتكلم (أرضنا) ثلاث مرات، وبصيغة الغائب (أرضهم) مرة واحدة[1]، فبالتالي يكون إجمالي ذِكر لفظ الأرض بجميع مشتقاته ومفرداته أربعمائة وواحدا وستين موضعًا في القرآن الكريم كله.

وبعد هذا العرض المجمل نعيش مع نموذج من نماذج آيات التعظيم المتعلقة بخلق السماء والأرض، حيث يتضمن حديثي هنا نقطتين هامتين، النقطة الأولىٰ: آيات التعظيم المتعلقة بخلق السماء، والنقطة الثانية: آيات التعظيم المتعلقة بخلق الأرض.

النقطة الأولىٰ: آيات التعظيم المتعلقة بخلق السماء

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته وسوره عن لفظ (السَّماوات) بالجمع، و(السَّماء) بالإفراد، فممَّا جاء في هذا المعنىٰ بصيغة الجمع: أنَّ مُلك السَّماوات لله عزَّ وجلَّ، وكذا عِلم السماوات لله تعالىٰ، والله -تعالىٰ- رافع السَّماوات، والتَّسبيح لصاحب السَّماوات، والله -تعالىٰ- نور السَّماوات، وإمساك السَّماوات بيد الله عزَّ وجلَّ، وخلق السماوات بيده -تبارك وتعالىٰ- ...الخ.

وفيما يتعلَّق بلفظ الإفراد نرىٰ ربَّنا -عزَّ وجلَّ- يخبرنا بلفظ الخلق تارة، وأخرىٰ بلفظ الجعل، وثالثة بلفظ الطَّيّ، ورابعة بلفظ الزِّينة، وخامسة يكون الحديث عن السَّماء فيما يتعلَّق بالأمور الدُّنيوية، وسادسة يكون فيما يتعلَّق بالأمور الأخروية، وسابعة يكون الحديث عن السَّماء باعتبار الخير للإنسان، وثامنة يكون باعتبار الشَّرِّ من وجهة نظر الإنسان نفسه ... الخ.

وممَّا لا شكَّ فيه: أنَّ هذا التَّنوَّع البديع في أساليب العرض القرآني لمصطلح السَّماء إفرادًا وجمعًا ليدلّ دلالة واضحة علىٰ مدىٰ التَّعظيم والتَّشريف الكائن فيه، فمن الصُّعوبة بمكان أن تجد كتابًا آخر يحتوىٰ علىٰ ما احتوىٰ عليه القرآن الكريم من تنوّعه واختلاف عرضه للموضوع الواحد بأساليب وبألفاظ متعددة، حيثُ إنَّ هذا التَّنوع في العرض والاختلاف في الأسلوب والبراعة فيه كان سببًا من أسباب الهدايات الكائنة في القرآن

(١) المرجع السابق (٢٦)، وما بعدها.

الكريم، فلا يقدر علىٰ هذا الإبداع إلا العظيم الكريم الذي أتقن كل شيء خلقه وأبدعه، فنِعم الخالق والمبدع هو الله عزَّ وجلَّ، فالله -تعالىٰ-: خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده وتعظيمه علىٰ ما أبدع وصنع[١].

وندرس سوِّيًا نموذجين: أوَّلهما يتعلَّق بلفظ الجمع (السماوات)، وثانيهما يتعلَّق بالإفراد (السَّماء)، فممَّا ذَكره القرآن الكريم بصيغة الجمع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

ففي تخصيص السَّماوات بالذِّكر تشريف وتعظيم لها؛ حيثُ إنها من أعظم مخلوقات الله -تعالىٰ-، وفي خلقها أمور تؤدي بالإنسان العاقل إلىٰ الإذعان والتسليم بوجود إله خالق قادر علىٰ هذا الكون، فيستحيل أن تُوجد الطبيعة الكون كما يدَّعي البعض، بل إنَّ خلق السَّماوات نفسها أدَّي بالكثير من غير المسلمين إلىٰ الدُّخول في دين الإسلام، وكانت -أيضًا- سببًا في هدايتهم لدخول الإسلام؛ حيثُ سماء وشمس وقمر ونجوم، وخلافه يصعب أن تكون بذاتها، بل هي أكبر دليل علىٰ وجود الصَّانع لها، وهو الله عزَّ وجلَّ، ومعنىٰ الآية كما ذكر بعض المفسرين أي: حَمَدَ اللهُ نَفْسَهُ تَعْلِيمًا لِعِبَادِهِ، أَيِ: احْمِدُوا اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ فِيمَا يَرَىٰ الْعِبَادُ، وَفِيهِمَا الْعِبَرُ وَالْمَنَافِعُ لِلْعِبَادِ[٢].

ويؤكِّد هذا المعنىٰ -أيضًا- ما أورده الإمام القرطبيُّ حيثُ ذكر قال: أَخْبَرَ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَقَالَ: الَّذِي خَلَقَ، أَيِ: اخْتَرَعَ وَأَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَابْتَدَعَ. وَالْخَلْقُ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الِاخْتِرَاعِ، وَيَكُونُ بِمَعْنَىٰ التَّقْدِيرِ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ حُدُوثِهِمَا، فَرَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَجَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً مِنْ غَيْرِ أَوَدٍ، وَجَعَلَ فِيهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَيْنِ، وَزَيَّنَهَا بِالنُّجُومِ، وَأَوْدَعَهَا السَّحَابَ وَالْغُيُومَ عَلَامَتَيْنِ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ وَأَوْدَعَهَا الْأَرْزَاقَ وَالنَّبَاتَ، وَبَثَّ فِيهَا من كلِّ دابة آيات، وجعل فِيهَا الْجِبَالَ أَوْتَادًا وَسُبُلًا فِجَاجًا، وَأَجْرَىٰ فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْبِحَارَ، وَفَجَّرَ فِيهَا الْعُيُونَ مِنَ الْأَحْجَارِ دَلَالَاتٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، وَبَيَّنَ بِخَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّه خالق كلِّ شيء[٣].

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٦٤) بتصرف.
(٢) معالم التنزيل (٣/ ١٢٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٨٤).

ويقول صاحب (فتح القدير): «وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ إِخْبَارًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ الْمُوجِبَةِ لِاسْتِحْقَاقِهِ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ والْتَعظِيمِ، فَإِنَّ مَنِ اخْتَرَعَ ذَلِكَ وَأَوْجَدَهُ هُوَ الْحَقِيقُ بِإِفْرَادِهِ بِالثَّنَاءِ والتعظيم وَتَخْصِيصِهِ بِالْحَمْدِ دُونَ سِوَاهُ»(١).

هذا عرض سريع للفظ الجمع (السَّماوات) فيما يتعلق بها من تعظيم لله -تعالىٰ-، وكيف كان الإبداع الإلهي في خلقها من أسباب الهدايات الكائنة في القرآن الكريم، وأنتقل إلىٰ لفظ الإفراد (السَّماء)، فهذا اللفظ في الغالب الأعم يُذكر مع النزول المتعلق بالمطر دائمًا، وقد يكون هذا المطر النازل من السماء خيرا وبركة ورزقا، كما يكون مطر شؤم وشر ودمار علىٰ أهله، فطوفان سيدنا نوح هو ماء واحد للطرفين: طرف استفاد منه في تحرك السفينة والنجاة وهم المؤمنون مع سيدنا نوح عليه السلام، وطرف آخر كان هذا الماء سبب إغراقهم وهلاكهم ودمارهم وهم كل من لم يؤمن بنوح ورسالته ... وهكذا.

ولنقرأ سوِّيًا لفظ السَّماء الوارد في (سورة نوح)، وعلىٰ لسانه حين قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[نوح].

فسيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في موقفه هذا يُبين ويُوضح لقومه -العبرة لجميع الأمم وليست خاصة بقوم نوح وحدهم- أنَّ من أسباب التوسيع في الرزق كثرة الاستغفار والتوبة لله تعالىٰ، فلو أكثر الإنسان من استغفاره وتوبته كانت الثمرة المرجوة -بإذن الله تعالىٰ- إرسال السَّماء بالخيرات والبركات، هنا قمة التعظيم لمن يرسل هذه البركات وتلكم النفحات، حيث جاء التعبير بالفعل المضارع الدَّالّ علىٰ الاستمرارية في الأداء، ثم السماء مفعول به والفاعل مقدر عائد علىٰ لفظ الجلالة جل جلاله، فلا يقدر علىٰ فعل هذا إلا الخالق عز وجل، وهنا مكمن التعظيم والتشريف لله -تعالىٰ-، حيث خصّ نفسه بفعل أمر يعجز كل المخلوقات علىٰ فعله، فأروني مخلوقًا عنده القدرة علىٰ إنزال المطر من السماء، أو القدرة علىٰ تحريك الهواء، أو القدرة علىٰ تسير السحاب، إنها منظومة الواحد الديان الذي لا يستحق التعظيم والعبادة الحقيقية إلا صاحبها عزَّ وجلَّ.

يقول الإمام الطبري ما نصُّه: «يَسْقِيكُمْ رَبُّكُمْ إِنْ تُبْتُمْ وَوَحَّدْتُمُوهُ وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ الْعِبَادَةَ الْغَيْثَ، فَيُرْسِلُ بِهِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ ﴿مِّدْرَارًا﴾ مُتَتَابِعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، يَقُولُ:

(١) فتح القدير (٢/ ١١٢) بتصرف.

وَيُعْطِكُمْ مَعَ ذَلِكَ رَبُّكُمْ أَمْوَالًا وَبَنِينَ، فَيُكَثِّرُهَا عِنْدَكُمْ وَيَزِيدُ فِيمَا عِنْدَكُمْ مِنْهَا ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّتٍ﴾ يَقُولُ: يَرْزُقْكُمْ بَسَاتِينَ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا﴾ تَسْقُونَ مِنْهَا جَنَّاتِكُمْ وَمَزَارِعَكُمْ؛ وَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ نُوحٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِيمَا ذُكِرَ قَوْمًا يُحِبُّونَ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ»[1].

وممَّا يُستفاد من الآيات البيِّنات ما ذكره الدُّكتور الزِّحيلي: «أن آية الاستغفار هذه دليل علىٰ أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار حيث أقام نوح عليه السلام الدليل علىٰ وجود الله وتوحيده وقدرته وعظمته بالنظر في النفس البشرية، والعالم العلوي من السماوات والشموس والأقمار، والعالم السفلي من التذكير بكنوز الأرض وخيراتها من معادن ونباتات وحيوانات، فالله -سبحانه- هو الذي خلق الإنسان في الأصل من التراب، ثم جعل سبب بقاء نوع الإنسان بالتزاوج والتوالد، والعناية بالإنسان في أطوار حياته، والله هو الذي خلق السماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة علىٰ الأخرىٰ كالقباب، وجعل القمر نورًا منيرًا في سماء الدنيا، والشمس مصباحًا مضيئًا لأهل الأرض، للتمكن من العمل والتصرف من أجل المعايش، وكما خلق آدم من أديم الأرض كلها، وتناسلت ذريته من بعده، يعيد الله الناس إلىٰ الأرض موتىٰ بالدفن في القبور، ثم يخرجهم منها بالنشور للبعث يوم القيامة، وقد بدأ هنا بدلائل الأنفس؛ لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، وقد يبدأ بدلائل الآفاق؛ لأنها أبهر وأعظم»[2].

إن استنزال المطر من السماء والخيرات الكائنة فيه لدليل واضح بيّن لمن كان له قلب أن خالق هذا يستحق التكريم والتعظيم ليل نهار، وصدق الدّكتور الزِّحيلي حين قال: «يبدأ بدلائل الآفاق؛ لأنّها أبْهر وأعظم».

النقطة الثانية: آيات التعظيم المتعلقة بخلق الأرض

إنَّ آيات التَّعظيم الواردة في القرآن الكريم المتعلِّقة بخلق الأرض كثيرة جدًّا، وسوف نقتصر علىٰ نموذج واحد فقط -منعًا لإطالة البحث- وهو قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [العنكبوت].

هذه الآية: خطابُ تشريفٍ لبعضِ المؤمنينَ الذين لا يتمكَّنُون من إقامةِ أمورِ الدينِ كما ينبغِي لممانعةٍ من جهةِ الكَفَرةِ وإرشادٌ لهم إلىٰ الطَّريقِ الأسلمِ، ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٩٤).
(٢) التفسير المنير (٢٩/ ١٤٦) بتصرف.

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾، أي: إذا لم يتسهَّل لكُم العبادةُ في بلدٍ، ولم يتيسَّر لكُم إظهارُ دينِكم، فهاجِرُوا إلىٰ حيثُ يتسنَّىٰ لكم ذلك[1]، وكذا: النِّدَاءُ بِعُنْوَانِ التَّعْرِيفِ بِالْإِضَافَةِ لِتَشْرِيفِ الْمُضَافِ، وَمُصْطَلَحُ الْقُرْآنِ أَنَّ (عِبَادَ) إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ؛ فَالْمُرَادُ بِهِمُ: الْمُؤْمِنُونَ غَالِبًا[2].

وبنظرة تحليلية تأملية في هذه الآية نرىٰ أن الله -تعالىٰ- خص الحديث فيها بعباده المؤمنين دون غيرهم، وهذا في حد ذاته تعظيم وتشريف لهم دون سائر خلقه، حيث نادىٰ عليهم بأحب الألفاظ ألا وهو لفظ العبودية، ثم نسبتهم إليه عز وجل من خلال ياء الإضافة (عبادي)، ثم بعد النسبة إلىٰ الله -تعالىٰ- والتشريف والتعظيم الكائن فيها نراه يقول: (الذين آمنوا)، وهذا لون آخر من ألوان التكريم والتعظيم لهم، فكأنَّ الله -تعالىٰ- أراد تأكيد هذه العبودية مع أن الكل عبيد لله -تعالىٰ-، إلَّا أنَّ الله -تعالىٰ- خصهم دون غيرهم بوصفهم بالإيمان الذي لا يتحقق في كل الناس، ثم تتجلىٰ العظمة الإلهية -أيضًا- من خلال نسبة الأرض إلىٰ الله -تعالىٰ- وتشريفها بياء الإضافة الدالة علىٰ كون الأرض كلها مِلكا لله -تعالىٰ- دون غيره من سائر البشر، وقول ملوك الدنيا: أرضي ومُلكي فهذا كله محدود ، أما أرض الله ومُلك الله عز وجل فلا حدود له علىٰ الإطلاق؛ لأن العقل البشري لا يستطيع استيعاب ملكوت الله عز وجل، ثم تكتمل مظلة التعظيم والتشريف -هنا- بقصر العبادة علىٰ الله وحده، فكأن الله -تعالىٰ- قصر العبادة الحقيقية علىٰ عباده المؤمنين الذين يستحقون وصفهم بالإيمان فقال: ﴿فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

ويؤكِّد هذا المعنىٰ الإمام الرَّازيُّ حيث ذكر في الآية مسائل: «إحداها: ﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾ لم يُرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله: ﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾ نقول: ليس داخلًا في قوله: ﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾؛ لوجوه: أحدها: أنَّ من قال في حقِّه: (عبادي) ليس للشَّيطان عليهم سلطان، بدليل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر] ، والكافر تحت سلطنة الشَّيطان، فلا يكون داخلًا في قوله: ﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾، الثاني: هو أنِّ الخطاب بعبادي أشرف وأعظم منازل المكلف. الثالث: هو أنَّ هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيِّه بتوفيق الله، وذلك لأنَّ الله -تعالىٰ- قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، فالمؤمن دعا ربَّه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَـٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٢).

عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران]، فأجابه الله -تعالىٰ-: ﴿﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣]. فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد: إلهي، وقول الله: عبدي= تأكدت بدعاء العبد، لكنَّ الكافر لم يدع فلم يُجب، فلا يتناول ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ غير المؤمنين. المسألة الثانية: إذا كان عبادي لا يتناول إلَّا المؤمنين فما الفائدة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مع أنَّ الوصف إنّما يُذكر لتمييز الموصوف؟ الفائدة لبيان أنّهم مؤمنون. المسألة الثَّالثة: إذ قال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ فهم يكونون عابدين، فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾؟ فنقول: فيه فائدتان، إحداهما: المداومة، أي: يا من عبدتموني في الماضي، اعبدوني في المستقبل. الثَّانية: الإخلاص، أي: يا مَن تعبدني، أخلص العملَ لي ولا تعبد غيري. ووجه التَّعلُّق هو أنَّ الله -تعالىٰ- لمَّا ذكر حال المشركين علىٰ حدة وحال أهل الكتاب علىٰ حدة، وجمعهما في الإنذار، وجعلهما من أهل النَّار؛ اشتد عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المؤمنين، ومنعوهم من العبادة، فقال مخاطبًا للمؤمنين: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّىَٰ فَٱعْبُدُونِ﴾، إن تعذَّرت العبادة عليكم في بعضها، فهاجروا، ولا تتركوا عبادتي بحال»[(١)].

ولا شكَّ أنَّ عبادة الله -تعالىٰ- فيها تشريفٌ وتعظيمٌ للعبد حينما يكون عبدًا لله تعالىٰ.

ويؤكد الدُّكتور سيِّد طنطاوي التَّشريف والتَّعظيم في نسبتهم إلىٰ الله -تعالىٰ-، حيث يقول: «في وصفهم بالإيمان، تكريم وتشريف لهم، حيث أضافهم -سبحانه- إلىٰ ذاته، ونعتهم بالنعت المحبب إلىٰ قلوبهم، وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ تحريض لهم علىٰ الهجرة من الأرض التي لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم، فكأنه -سبحانه- يقول لهم: ليس هناك ما يجبركم علىٰ الإقامة في تلك الأرض التي لا قدرة لكم فيها علىٰ إظهار دينكم، بل اخرجوا منها، فإنَّ أرضىٰ واسعة، ومن خرج من أجل كلمة الله رزقه الله -تعالىٰ- من حيث لا يحتسب»[(٢)].

ونختم الحديث عن التَّعظيم المتعلِّق بالأرض من خلال تعليق ابن كثير علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ١٢] حيثُ يذكر: «يقول -تعالىٰ- مخبرًا عن قدرته التَّامَّة وسلطانه العظيم؛ ليكون ذلك باعثًا علىٰ تعظيم ما شرع من الدِّين القويم»[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٦٩) بتصرف، واللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٣٦٨) بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط (١١/ ٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ١٧٧).

المطلب الرابع: نماذج من آيات التعظيم المتعلقة بهلاك المفسدين.

تحدث القرآن الكريم عن هلاك المفسدين في الكثير من الآيات القرآنية بأشكال مختلفة وألوان متعددة، فتارة جاء التعبير القرآني بلفظ خسفنا، وتارة أخرىٰ بلفظ دمرنا، وتارة ثالثة بلفظ أهلكنا، وتارة رابعة بلفظ أغرقنا، وخامسة عن طريق طلب المفسدين أنفسهم إسقاط كِسف من السماء، إلىٰ غير ذلك من الألفاظ والصِيغ المتعلقة بهلاك المفسدين الظالمين في الأرض.

وبالتأمل في كل الآيات المتعلقة بهلاك المفسدين نرىٰ بعين جلية أن أغلبها جاء بـ (نا) الدَّالّة علىٰ العظمة الإلهية فيما يفعله الله -تعالىٰ-، فهذا الفعل (الهلاك) لا يقدر علىٰ تحقيقه بالمفسدين، إلَّا الله عزَّ وجلَّ، فهو وحده بيده هذا الأمر دون غيره من سائر خلقه، ومن الآيات المؤكدة لهذا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ [القمر]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الصافات]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الشعراء]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ العظمة الإلهية في معاقبة المفسدين في الأرض.

ونعيش مع نموذج من نماذج هلاك المفسدين في الأرض وبيان مكمن العظمة الإلهية في هلاكهم وتدميرهم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]؛ فإنَّ أول ما يلفت الأنظار في شاهدنا هذا بداية الآية المباركة، وذلك من خلال قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ هذه نتيجة طبيعية لمقدمات مضت بها الآيات -سالفة الذكر- بداية من قصة سيدنا لوط مع قومه، ثم

سيدنا شعيب، ثم قوم عاد وثمود، وختامًا بقوم فرعون وأعوانه، حيثُ إنَّ هؤلاء الأقوام جميعًا لم تستجب لدعوة رسلهم وأنبيائهم وعتوا في الأرض فسادًا ليس له مثيل، حتىٰ إن سيدنا شعيبًا حذر قومه بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] وبالرَّغم من هذا التحذير شديد اللهجة= لم يؤمنوا، ولم يستجيبوا لهذه الدعوة، فكانت النتيجة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، ثم جمع الله -تعالىٰ- للأقوام السَّابقة العقوبة في آياتنا هذه مفتتحًا بقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فهذا صنيع فِعلهم، والله -تعالىٰ- لا يظلم أحدًا أبدًا حتىٰ ولو كان كافرًا، فالكفر ليس مسوغًا للظلم، فجزاؤهم ثمرة كفرهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فالله -تعالىٰ- لا يحب الفساد ولا أهل الفساد، فكثيرًا ما ورد في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]: «ظَاهِرُ الْمُفْسِدِينَ الْعُمُومُ، فَيَنْدَرِجُ هَؤُلَاءِ فِيهِمْ، وَانْتِفَاءُ الْمَحَبَّةِ كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِهِ لَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَهَؤُلَاءِ يُثِيبُهُمْ، وَإِذَا لَمْ يُثِبْهُمْ فَهُوَ مُعَاقِبُهُمْ، إِذْ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الْعِقَابِ وَالثَّوَابِ»[(١)].

وعن المعنىٰ الإجمالي للآية يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخبر -تعالىٰ- عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم؟ فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضر موت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرىٰ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدًا، وتمر عليها كثيرًا، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسىٰ ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله -تعالىٰ- ورسوله ﷺ، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلىٰ عنان السماء، ثم تنكسه علىٰ أم رأسه فتشدخه، فيبقىٰ بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا، بل استمروا علىٰ طغيانهم وكفرهم، وتهدَّدوا نبيَّ الله صالحًا ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾

(١) البحر المحيط (٤/ ٣١٨).

وهو قارون الذي طغىٰ وبغىٰ وعتا، وعصىٰ الرَّبَّ الأعلىٰ، ومشىٰ في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنَّه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم، أُغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: إنَّما فعل ذلك بهم جزاءً وِفاقًا بما كسبت أيديهم»[1].

لقد حسم الله -تعالىٰ- هذه القضية حين قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، فالله -تعالىٰ- لا يظلم أحدًا أبدًا أبدًا، ولكن هذا الكافر هو الذي يظلم نفسه بنفسه، بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفعلهم للمنهيات وتركهم للمأمورات، ومكمن التعظيم في الآية المباركة -سالفة الذكر- أنَّ الألفاظ كلّها وردت بصيغة (نا) العظمة الدَّالَّة علىٰ عظمة الله -تعالىٰ- في عقابه للفاسدين ﴿أَخَذْنَا، أَرْسَلْنَا، خَسَفْنَا، أَغْرَقْنَا﴾، يؤكد كلامي: ﴿فَكُلًّا﴾، أي: فتسبَّب عن تكذيبهم أن كلًّا ﴿أَخَذْنَا﴾، أي: بما لنا من العظمة ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: أخذَ عقوبةٍ ليعلم أنَّه لا أحد يعجزنا»[2]، ثم تُختم الآية ببيان الاسم الظَّاهر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي لا يقدر علىٰ فعل هذا كلَّه، إلَّا هو -عزَّ وجلَّ- صاحب العظمة والتعظيم في كلّ شؤن الحياة.

وبعد هذا البيان نكون قد وضَّحنا مكمن التعظيم الكائن في بعض من الآيات المتعلقة بهلاك المفسدين في الأرض، ونكون قد انتهينا من المطلب الرَّابع من بحثنا.

وصلِّ اللهمّ علىٰ سيدنا محمّد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلِّم، والحمدُ لله ربِّ العالمين،،

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥١،٢٥٢).

(٢) السراج المنير (٣/ ١٤١).

الخاتمة

-نسأل الله تعالىٰ حُسنها-

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ سيّدنا محمّد بن عبد الله النَّبيِّ المصطفىٰ الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،

وبعد؛ فقد عشت فترة ليست بالقصيرة مع موضوع يُعدّ جديدًا علىٰ السَّاحة الأكاديمية والعلمية -تعظيم الله تعالىٰ في هدايات القرآن الكريم- استفدت منه كثيرًا في مجال البحث العلمي الأكاديمي، ويمكن لنا أن نُجمل بعضًا من **النتائج** علىٰ النحو الآتي:

أولًا: آيات التعظيم في القرآن الكريم كثيرة جدًّا جدًّا، وما علىٰ الباحثين إلا إعمال العقل والفكر في استخراج مواطن التعظيم، ومن العجب أن هذه الآيات لم تُذكر صراحة إلا في قليل من المواضع القرآنية؛ مما يحتاج إلىٰ إعمال فكر واجتهاد لاستنباط مواطن التعظيم الكائنة بين الآيات.

ثانيًا: هناك آيات كثيرة تتعلق بالشعائر الدينية مضمونها كلها يدل علىٰ أن المشرع والذي يستحق التعظيم هو الله وحده دون سائر خلقه، فهو أدرىٰ بما يتفق مع مصالح خلقه، وأحرص علينا من أنفسنا.

ثالثًا: الهدايات الكائنة في القرآن الكريم لا تنته ولا تنقطع أبدًا، فمن حكمته عز وجل: أن هدىٰ أهل كل زمان ومكان لاستنباط قدر من هذه الهدايات الكائنة فيه تتوافق مع قدرتهم العقلية والحياتية، وصدق الله حيث قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف].

رابعًا: أن موضوع تعظيم الله -تعالىٰ- وهدايات القرآن الكريم الكائنة فيه ليؤدي بالمسلم إلىٰ زيادة يقينه، وصلته بالله -تعالىٰ- من ثراء إيماني، وبُعد معرفي، وإحياء للروح الإيمانية في نفوس الأمة من خلال العناية بأعمال القلوب التي في مقدمتها تعظيم الله -تعالىٰ-.

خامسًا: من إحدىٰ أسباب الهدايات القرآنية: آيات التعظيم المتعلقة بخلق الإنسان، وخلق السَّماوات والأرض؛ حيثُ إنها سبب أساسي في دخول الكثير من غير المسلمين لدين الإسلام، وفيها من دلالات الإعجاز والتعظيم ما يعجز عن إيجاد مثله جميع الخلق.

سادسًا: الآيات المتعلقة بهلاك المفسدين في الأرض هي أكبر دليل علىٰ تعظيم الله عز وجل، ودلالة التعظيم تكمن في كونه وحده القادر علىٰ الهلاك والدمار للمفسدين، فلا يقدر علىٰ هذا الفعل إلا صاحب القدرة والعظمة والجبروت، وما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان إنما هي أمور قدرية ليست ثابتة علىٰ الدوام والاستمرار، فالضعيف يُصبح قويًا، والقوي يُصبح ضعيفًا، وهكذا.

أهم التوصيات:

أولًا: أوصي نفسي وجميع الباحثين بالبحث عن الدرر الكامنة الكائنة بين صفحات القرآن الكريم، فالقرآن كتاب لا تنته عجائبه، ولا تنفد أسراره، ولا تنقطع كنوزه، فهو كتاب إعجاز وبيان، أنزله الله للتدبر والتذكر ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

ثانيًا: أوصي القائمين علىٰ شؤن المؤتمر بالعمل علىٰ ترجمة أبحاثه إلىٰ اللغات غير العربية، فالمسلمون في البلاد غير الناطقة بالعربية في أمس الحاجة إلىٰ تعليم أمور دينهم، وخاصة التوسط والاعتدال الذي يتمتع بهما منهج أهل السنة والجماعة، وهذا ما يفتقده أهل هذه البلاد، فيا حبذا لو تُرجمت أبحاث المؤتمر فهي خلاصة لعصارة أفكار وثقافات علماء ومثقفين من خِيار الباحثين الأكاديميين والمحبين للدراسات الإسلامية.

ثالثًا: أوصي كلّ المهتمين بالدراسات القرآنية في مشارق الأرض ومغاربها بالسير علىٰ نهج جامعة أفريقيا العالمية -مشاركة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرىٰ- في البحث عن موضوعات قلّما بُحثت علىٰ الساحة العلمية الثقافية الأكاديمية، فأمثال هذه الموضوعات هي الدَّاعية إلىٰ البحث والتنقيب عن أسرار وعجائب القرآن الكريم، فهذه الأسرار وتلكم العجائب الكائنة فيه أكبر ردٍّ علىٰ كونه كتاب إعجاز وتحدي، وسبب حيوي من أسباب الهدايات الكائنة فيه، وأساس حقيقي لدخول غير المسلمين لدين الإسلام.

وصلِّ اللهمَّ علىٰ سيّدنا محمّد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلِّم، والحمد لله رب العالمين،،

المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم لأبىٰ السعود(ت:٩٨٢هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أسباب نزول القرآن لأبىٰ الحسن علي الواحدي، النيسابوري (ت:٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام ابن عبد المحسن الحميدان، نشر: دار الإصلاح، الدمام، ط: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- إيجاز البيان عن معاني القرآن لأبىٰ القاسم نجم الدين النيسابوري (ت:٥٥٠هـ)، تحقيق: د: حنيف بن حسن القاسمي، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولىٰ - ١٤١٥هـ.
- البحر المحيط في التفسير لأبىٰ حيان الأندلسي (ت:٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، ط:١٤٢٠هـ.
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ)، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- بيان المعاني لعبد القادر بن ملّا (ت:١٣٩٨هـ)، نشر: مطبعة الترقي، دمشق، ط: الأولىٰ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ت:١٣٩٣هـ)، نشر : الدار التونسية، تونس: ١٩٨٤هـ.
- التعريفات الفقهية لمحمد عميم الإحسان، نشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- تفسير الراغب الأصفهاني للراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ)، تحقيق ودراسة: د: محمد عبد العزيز بسيوني، نشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، مصر، ط: الأولىٰ: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- تفسير الشعراوي "الخواطر" لمحمد متولي الشعراوي (ت:١٤١٨هـ)، نشر: مطابع أخبار اليوم.
- تفسير القرآن العزيز لأبىٰ زَمَنِين المالكي (ت:٣٩٩هـ)، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفىٰ الكنز، نشر: الفاروق الحديثة، مصر، ط: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

- تفسير القرآن العظيم لأبىٰ الفداء إسماعيل بن كثير (ت:٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولىٰ، ١٤١٩هـ.
- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (ت:١٣٩٠هـ)، نشر دار الفكر العربي، القاهرة.
- التفسير المأمون علىٰ منهج التنزيل والصحيح المسنون لمأمون حموش، المدقق اللغوي: أحمد راتب حموش، ط: الأولىٰ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- تفسير المراغي لأحمد بن مصطفىٰ المراغي (ت:١٣٧١هـ)، نشر: مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي مصر، ط: الأولىٰ، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي، نشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: الثانية، ١٤١٨هـ.
- التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي، نشر: دار الجيل الجديد، بيروت: العاشرة، ١٤١٣هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي، نشر: دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط: الأولىٰ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، نشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط: الأولىٰ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين العلوي الشافعي، إشراف ومراجعة: د: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، نشر: دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- تفسير مجاهد لأبىٰ الحجاج مجاهد بن جبر (ت:١٠٤هـ)، تحقيق: د: محمد عبد السلام، نشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط: الأولىٰ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- تهذيب اللغة لأبىٰ منصور محمد بن الأزهري الهروي، (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعبن، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولىٰ، ٢٠٠١م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي (ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، نشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولىٰ ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- جامع البيان في تأويل القرآن لأبىٰ جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولىٰ،١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر: دار طوق النجاة، ط: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن لأبىٰ عبد الله محمد بن شمس الدين القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش نشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للخطيب الشربيني الشافعي (ت:٩٧٧هـ)، نشر: مطبعة بولاق، القاهرة، نشر: ١٢٨٥هـ.
- سنن ابن ماجه لأبىٰ عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت:٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لأبىٰ العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي (ت:٧٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، نشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولىٰ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن النيسابوري (ت:٨٥٠هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولىٰ - ١٤١٦ هـ.
- الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمذاني (ت:٦٤٣هـ)، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، نشر: دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولىٰ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبىٰ إسحاق الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: الأولىٰ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.
- اللباب في علوم الكتاب لأبىٰ حفص سراج الدين الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علىٰ بن منظور (ت: ٧١١هـ)، نشر: دار صادر، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

- مباحث في إعجاز القرآن لمصطفىٰ مسلم، نشر: دار القلم، دمشق، ط: الثالثة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبىٰ محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر: دار الدعوة.
- معجم مقاييس اللغة لأبىٰ الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.